( **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)** ) .

[ التوبة : ١١٢ ] .

---

هذا نعتُ المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة والخلال الجليلة:

- **قال أبو حيان** : وهذه أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إلى التحلي بها عباده ، وليكونوا على أوفى درجات الكمال ، وآية أنّ الله اشترى مستقلة بنفسها ، لم يشترط فيها شيء سوى الإيمان ، فيندرج فيها كل مؤمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم تكن فيه هذه الصفات.

( **التَّائِبُونَ** ) أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

قالَ تَعَالَى: ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ) .

وقَالَ الله تَعَالَى : ( وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ) .

- وحتى تكون التوبة صحيحة يشترط لذلك شروط :

**أحَدُها : أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ .**

**قال ابن القيم** : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

**والثَّانِي : أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .**

**قال ابن القيم** : فأما الندم، فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وفي المسند ( الندم توبة ) .

**والثَّالثُ : أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.**

( **الْعَابِدُونَ** ) أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

- يكون العبد محققاً للعبودية بأمرين :

**الأول** : متابعة الرسول ﷺ .

**الثاني** : الإخلاص لله تبارك وتعالى .

- كلما كان العبد أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه ، وأعز له ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله .

- **قال ابن تيمية** : أعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه.**كما قيل:** احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيئاً.

والرسول ﷺ قال ( إنما أنا عبد ) ، وقد وصفه الله في وصف العبودية في أعلى المنازل :

فقال تعالى في الإسراء ( سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً م... ) .

وقال تعالى في مقام التحدي ( وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ ) .

وقال تعالى في مقام الدعوة ( وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً ) .

وكان ﷺ أعبد الناس لربه وأخشاهم له .

ووصف الله بذلك أكمل خلقه وأحبهم إليه وهم رسله وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام .

قال تعالى ( وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ) .

وقال تعالى ( وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ) .

وقال تعالى عن المسيح ( إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ) .

وقال عنه وعن الملائكة ( لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ) .

وقال أيضاً عن الملائكة ( وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ) .

والعبادة هي الغاية المحبوبة لله تعالى والمرضية له التي خلق الخلق لها ، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ) ، وبها أرسل جميع الرسل كما قال تعالى ( وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ) .

( **الْحَامِدُونَ** ) لله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

( **السَّائِحُونَ** ) أي : الصائمون ، وهو ترك الملاذِّ من الطعام والشراب والجماع ، كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله تعالى ( سَائِحَاتٍ ) أي: صائمات .

- **قال الرازي** : قال عامة المفسرين هم الصائمون.
- **وقال الشوكاني** : قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى ( عابدات سائحات ) وإنما قيل للصائم سائح؛ لأنه يترك اللذات ، كما يتركها السائح في الأرض .
- وفسرت السياحة ، الرحلة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام .
- والسياحة في اللغة أصلها : الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء .
- **قال ابن كثير**: ليس المراد من السياحة ما قد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري، فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتَن والزلازل في الدين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال (يوشك أن يكون خير مال الرجل غَنَم يَتْبَع بها شَعفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن) .

( **الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** ) أي: المكثرون من الصلاة، المشتملة على الركوع والسجود.

( **الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ** ) ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

( **وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ** ) وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

( **وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ** ) أي :القائمون بما أمر به والمنتهون عما نهى عنه.

- وحدود الله تنقسم إلى قسمين :

حدود أوامر وواجبات يجب فعلها ، وعدم تركها وتعديها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ) .

وحدود نواه ومحرمات وممنوعات يجب تركها والبعد عنها وعدم قربها كما قال تعالى (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا ) .

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ**) لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً ، وعملاً بمقتضاه.

**الفوائد :**

١- فضل التوبة .

٢- على المسلم أن يجدد التوبة دائماً وأبداً .

٣- فضل العبودية لله .

٤- كلما كان الإنسان أكثر عبودية لله كان أعظم منزلة عند الله .

٥-فضل حمد لله في السراء والضراء .

٦- على الإنسان أن يبحث دائماً عن الأسباب التي تؤدي إلى حمد الله وشكره .

٧-فضل عبادة الصيام .

٨- فضل الصلاة وعلو منزلتها .

٩- فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تقدم فضلهما وما فيهما .

١٠-فضل حفظ حدود الله .

١١- تحريم تعدي حدود الله .

١٢- استحباب تبشير المؤمنين .

**( مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) ) .**

[ التوبة : ١١٣- ١١٤ ] .

---

لما بيّن الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، وصرّح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولي قربى ، وأن القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها .

( **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا** ) يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به .

( **أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ** ) أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره .

( **وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى** ) أي : ولو كان هؤلاء المشركون من أقرب أقربائهم .

( **مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ) هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار ، والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة ، لأنهم ماتوا على الشرك . وقد قال سبحانه ( إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ) . فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

- عن سعِيد بْن الْمُسَيَّب عَنْ أَبِيهِ قَالَ ( لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « يَا عَمِّ قُلْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ». فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِى أُمَيَّةَ يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدُ لَهُ تِلْكَ الْمَقَالَةَ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «أَمَا وَاللَّهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ». فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ). وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ).

( **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا** ) في قوله (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا) وقوله تعالى (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

- **قال الشوكاني** : ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدوّ لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدلّ على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار ، ومن أعداء الله .

( **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ** ) أي : فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ( تَبَرَّأَ مِنْهُ ) موافقة لربه وتأدباً معه.

( **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ** ) أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار والإنابة إلى ربه.

( **حَلِيمٌ** ) الكثير الحلم ، كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ، ويصبر على الأذى . وقيل : الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله .

- **صفات إبراهيم عليه السلام :**

**الصفة الأولى** : أمة .

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ... )

قيل معناها هنا : الرجل الجامع لخصال الخير حتى يقوم مقام أمة من الناس ، وهذا هو المقصود في حق إبراهيم ، وهذه تدلنا على عظيم ما كان يتصف به إبراهيم من عبادة ودعوة وخلق .

وقيل أن المقصود بالأمة هنا : أي الإمام ، أي قدوة يقتدى به في الخير ، وممن قال به ابن جرير الطبري وابن كثير .

**الصفة الثانية** : قانت .

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً ) .

والقنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع .

**الصفة الثالثة** : حنيفاً .

والحَنَف : الميل عن الضلال إلى الاستقامة ، والحنيفُ : المائل والجنف : ضده .

والأحنف : مَنْ في رجله ميل سمي بذلك تفاؤلاً ، وقيل لمجرد الميل .

قال ابن كثير : الحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد .

وقد كان ذلك من إبراهيم حتى عُدَّ إمام الحنفاء الموحدين ، قال تعالى : [ ولَمْ يَكُ مِنَ المشْرِكِينَ ]، وقال : [ ومَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ ]، وهكذا فليكن أولياء الله .

**الصفة الرابعة** : شاكر .

قال تعالى ( **شَاكِراً لأَنْعُمِهِ** ) أي قائماً بشكر نعم الله عليه .

نعمة الله على لسان عبده : ثناء واعترافاً ، وعلى قلبه : شهوداً ومحبة ، وعلى جوارحه : انقياداً وطاعة .

بالقلب ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ) .

وباللسان ، قال تعالى ( وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ) .

وبالجوارح ، قال تعالى ( اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ) .

**الصفة الخامسة** : الحلم .

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ) .

والحلم : ضبط النفس والطبع عن الهيجان عند الاستثارة .

والحليم : الكثير الحلم وموقف إبراهيم من مقالة أبيه ( لأَرْجُمَنَّكَ ) .

ومن العتاة قوم لوط حينما مرت به الملائكة وأخبرته بما أمرت بها قال ( فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ) .

ولم يكن حلم إبراهيم ذريعة يتذرع للسكوت عن المنكر بل كان يعلن الحق وينكر الباطل ( وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ) .

**الصفة السادسة** : أوّاه .

قال تعالى ( إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ) .

والذي يتحقق من معنى الأوّاه أنه الخاشع الدعّاء المتضرع ، وكثرة تأوّه إبراهيم وتضرعه بين يدي ربه قد ذكرت في آيات كثيرة تدل على تحقيق إبراهيم ( رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وإِلَيْكَ أَنَبْنَا وإِلَيْكَ المَصِيرُ ) وجدير بمن سلك طريق الدعوة أن يجعل تعجيل الإنابة من أبرز سماته ليكسب عون ربه وتسديده ومحبته .

**الصفة السابعة** : السخاء .

قال تعالى ( هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ المُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ ) .

فذكر أن الضيف مكرمون لإكرام إبراهيم لهم ، ولم يذكر استئذانهم ليدل على أنه قد عرف بإكرام الضيفان ، مع أنهم قوم منكرون لا يعرفهم فقد ذبح لهم عجلاً واستسمنه ، ولم يعلمهم بذلك بل راح : أي ذهب خفية حتى لا يُشعر به ، تجاوباً لضيافة ، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم مهيئاً للضيفان ، وخدمهم بنفسه، فجاء به ومرّ به إليهم ولم يقربهم إليه، وتلطف مبالغة في الإكرام فقال (أَلا تَأْكُلُونَ) .

**الصفة الثامنة** : الصبر .

كان إبراهيم مثلاً يحتذى في الصبر حتى استحق أن يكون من أولي العزم الذين أمر رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم ( فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ) .

وكان صبر إبراهيم شاملاً لابتلاءات كثيرة ، سيأتي بيان جملة منها بإذن الله .

**الصفة التاسعة** : شجاعته .

واجه إبراهيم قومه ولم يخش كيدهم وقال مقسماً ( وتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ) وقوله لهم ( أُفٍّ لَّكُمْ ولِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ... ) .

**الصفة العاشرة** : تحقيقه الكامل لعقيدة الولاء والبراء .

قال تعالى ( وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلاَّ الَذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ) .

فكل عدو لله وإن قربه النسب تجب البراءة منه ، وكل ولي لله وإن باعدت به الأوطان والأزمان تجب موالاته ومحبته وقد أمرنا أن نتأسى بإبراهيم في ذلك ( قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ ومِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ

اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وبَدَا بَيْنَنَا وبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ والْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحْدَهُ ... ) .

**الصفة الحادية عشرة** : سلامة القلب .

قال تعالى ( وإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ) .

وسلامة القلب نوعان : كلاهما داخل في مضمون الآية ، **أحدهما** : في حق الله وهو سلامة قلبه من الشرك ، وإخلاصه العبودية لله ، وصدق التوكل عليه .

**والثاني** : في حق المخلوقين بالنصح لهم وإيصال الخير إليهم ، وسلامة القلب من الحقد والحسد وسوء الظن والكبر وغير ذلك .

**الفوائد** :

١-أنه لا يجوز لمسلم أن يستغفر لمشرك بعد موته على الشرك مهما بلغت درجة قرابته له.

٢-هذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً .

٣- أهمية عقيدة الولاء والبراء .

٤-خطر الشرك .

٥- أن من مات على الشرك فهو من أهل النار .

٦- أنه لا يجوز موالاة أعداء الله ولو كانوا من أقرب الناس .

٧- تحقيق إبراهيم لعقيدة الولاء والبراء .

٨- الاقتداء بإبراهيم في ذلك .

٩- الثناء على إبراهيم .

**( وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) )**

[ التوبة : ١١٥ ] .

---

( **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا** ) نزلت الآية في قوم من المسلمين استغفروا للمشركين ، فخافوا على أنفسهم من ذلك ، فنزلت الآية تانيساً لهم، أي: ما كان الله ليقضي على قوم بالضلال .

( **بعد إذ هداهم** ) أي : بعد أن وفقهم للإيمان .

( **حتى يبين لهم ما يتقون** ) أي : حتى يبين لهم ما يجتنبونه ، فان خالفوا بعد النهي استحقوا العقوبة .

والمعنى : أي: وما كان من شأن الله – تعالى – في لطفه وعدله .. أن يصف قوماً بالضلال عن طريق الحق « بعد إذ هداهم » إلى الإسلام ، لمجرد قول أو عمل صدر عنهم عن طريق الخطأ في الاجتهاد.

- وإنما يصفهم بذلك بعد أن يبين لهم ما يجب اتقاؤه من الأقوال والأفعال ، فلا يطيعون أمره ، ولا يستجيبون لتوجيهه سبحانه .

قال صاحب الكشاف : يعنى سبحانه أن ما أمر باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيرها مما نهى عنه وبين أنه محظور ، لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب. وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ، ولا ببيع الصاع بصاعين قبل التحريم.

( **إن الله بكل شيء عليم** ) أي : عليم بجميع الاشياء ومنها انه يعلم من يستحق الهداية ، ومن يستحق الاضلال .

**الفوائد :**

١- رحمة الله بعباده .

٢- عدل الله تعالى .

٣- أن الله لا يعاقب أحد على فعل أو قول إلا بعد إقامة الحجة عليه .

ففي هذا أدلّ دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سبباً إلى الضلالة والردى ، وسُلَّما إلى ترك الرشاد والهدى.

٤- عموم علم الله تعالى .

**( إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١١٦) ) .**

[ التوبة : ١١٦ ] .

---

**( إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ )** أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً.

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض يفيد :

**أولاً** : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة ( الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت ، حينما أرسلت إليه ليأتي ، فأرسل يقرأ السلام ويقول : إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب ) .

**ثانياً** : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

**ثالثاً** : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ) .

وقال ﷺ ( إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون .. ) رواه مسلم .

**( يُحْيِي وَيُمِيتُ )** أي : بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ، ولا يُزاد في عمُر أحد ولا يُنقص منه إلا بقضائه وقدره .

قال الطبري : يعني جل ثناؤه بقوله : (والله يحيي ويميت) والله المعجِّل الموتَ لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما شاء ، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله عز وجل ترغيبٌ لعباده المؤمنين على جهاد عدوه والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم ، وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله وإعلامٌ منه لهم أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحدٌ ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذي كتب له ونهيٌ منه لهم ، إذ كان كذلك ، أن يجزعوا لموت من مات منهم أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين. أ هـ

**( وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ )** أي : وما لكم من غير الله من ولي : يرعى شؤونكم ، أو ناصر ينصركم ، فالله نعم الولي ونعم النصير .

**ئ**

- **قال الشيخ ابن عثيمين:** اعلم أن الولي والنصير إذا اجتمعا صار الولي فيما ينفع، والنصير من يدافع عنك ممن يعتدي عليك، وأما إذا أفرد أحدهما شمل الآخر، فإذا قيل: ولي بدون نصير، فالمراد به من يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر .

**الفوائد :**

١- تقرير ملك الله عز وجل للسماوات والأرض ، لقوله : (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ).

٢-اختصاص ملك السماوات والأرض لله عز وجل لا يملكهما أحد سواه ، قال تعالى : ( وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) .

٣- عموم ملك الله لكل شيء .

٤- الذي بيده الحياة والموت هو الله .

٥- الشجاعة والإقدام وعدم الخوف ، لأن أمر الحياة والموت بيد الله لا بيد المخلوق .

**( لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٧) ) .**

[ التوبة : ١١٧ ] .

---

( **لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ** ) يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه تَابَ عَلَى النَّبِيِّ محمد ﷺ .

( **وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ** ) فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات .

- وللعلماء أقوال في المراد بالتوبة التي تابها الله على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المهاجرين والأنصار :

**فمنهم** من يرى أن المراد بها قبول توبتهم ، وغفران ذنوبهم ، والتجاوز عن زلاتهم التي حدثت منهم في تلك الغزوة أو في غيرها ، وإلى هذا المعنى أشار القرطبي بقوله :

قال ابن عباس: كانت التوبة على النبي ﷺ لأجل أنه أذن للمنافقين في القعود، بدليل قوله سبحانه قبل ذلك (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) وكانت توبته على المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه؛ أي: إلى التخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك.

**ومنهم** من يرى أن المقصود بذكر التوبة هنا التنويه بفضلها، والحض على تجديدها، وإلى هذا المعنى اتجه صاحب الكشاف فقال: « تاب الله على النبي » كقوله : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » وكقوله : « واستغفر لذنبك ». وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرين والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح .

**ومنهم** من يرى أن المراد بالتوبة هنا : دوامها لا أصلها ، وإلى هذا المعنى أشار بعضهم بقوله : لقد تاب الله على النبي .. » أي : أدام توبته على النبي والمهاجرين والأنصار. وهذا جواب عما يقال : من أن النبي معصوم من الذنب ، وأن المهاجرين والأنصار لم يفعلوا ذنبا في هذه القضية ، بل اتبعوه من غير تلعثم ، قلنا : المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها .

**ومنهم** من يرى أن ذكر النبي هنا إنما هو من باب التشريف ، والمراد قبول توبة المهاجرين والأنصار فيما صدر عن بعضهم من زلات ، وقد وضح هذا المعنى الإمام الآلوسي فقال : قال أصحاب المعاني : المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار ، إلا أنه جيء في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم تشريفا لهم ، وتعظيما لقدرهم ، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله ( فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ..) الآية أي : عفا سبحانه عن زلات صدرت منهم يوم أحد ويوم حنين .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب الآراء إلى الصواب ، لأن الآية الكريمة مسوقة لبيان فضل الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين ، حيث غفر لهم ما فرط منهم من هفوات وقعت في هذه الغزوة وهذه الهفوات صدرت منهم بمقتضى الطبيعة البشرية ، وبمقتضى الاجتهاد في أمور لم يبين الله تعالى حكمه فيها ، فهي لا تنقص من منزلة الرسول ﷺ ولا من منزلة أصحابه الصادقين في إيمانهم. ( التفسير الوسيط ) .

( **الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ) أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة "تبوك" وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك .

( **فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ) أي : في وقت الشدة والضيق ، وهو وقت غزوة تبوك ، فالمراد بالساعة هنا مطلق الوقت.

وقد كانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة ، كما كان الجيش الذي اشترك فيها يسمى بجيش العسرة ، وذلك لأن المؤمنين خرجوا إليها في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وفقر في الزاد والماء والراحلة.

( **مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ** ) بيان لتناهى الشدة ، وبلوغها الغاية القصوى.

أي : تاب سبحانه على الذين اتبعوا رسوله من المهاجرين والأنصار ، من بعد أن أشرف فريق منهم على الميل عن التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك ، لما لابسها وصاحبها من عسر وشدة وتعب.

- وفي ذكر « فريق منهم » إشارة إلى أن معظم المهاجرين والأنصار ، مضوا معه ﷺ إلى تبوك دون أن تؤثر هذه الشدائد في قوة إيمانهم وصدق يقينهم ، ومضاء عزيمتهم ، وشدة إخلاصهم.

(**ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** ) أي : ثم تاب عليهم سبحانه بعد أن كابدوا ما كابدوا من العسر والمشقة ومجاهدة النفس. إنه بهم رءوف رحيم.

قال بعضهم : فإن قلت : قد ذكر التوبة أولا ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار؟

قلت : إنه سبحانه ذكر التوبة أولا قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيما لشأنهم ، وليعلموا أنه – تعالى – قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم ، ثم أتبعه بقوله – سبحانه – إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ تأكيداً .

- **وقال القرطبي** : قوله « ثم تاب عليهم » قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ وتلك سنة الحق سبحانه مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ووطنوا أنفسهم على الهلاك ، أمطر عليهم سحائب الجود فأحيا قلوبهم.

( **إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ) ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

- والرؤوف : اسم من أسماء الله تعالى .

والرأفة أعلى معاني الرحمة .

**وقال الخطابي** : الرؤوف هو الرحيم العاطف برأفته على عباده .

**وقال بعضهم** : الرأفة أبلغ الرحمة وأرقها .

**قال الحسن البصري** : من رأفته بهم حذرهم نفسه.

فمن رأفته سبحانه وتعالى بنا ، أنه خوفنا من عقوبته وعذابه ، ونهانا عن معصيته ، قبل أن يلقاه العبد يوم القيامة ليستعد للقائه ، ويتجنب سخطه وغضبه (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) .

ومن رأفته أنه أرسل رسله وأنزل كتبه التي تبين شرعه ، لينقذ الناس من ظلمات الشرك والجاهلية إلى نور التوحيد والهداية (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ) .

ومن رأفته أنه يقبل توبة التائبين ، ولا يُرد عن بابه العاصين المنيبين ، مهما كثرت سيئاتهم ، وتعاظمت خطيئاتهم ( ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ) .

ومن رأفته : تسخيره لما في السماوات وما في الأرض لمصلحة الإنسان ومنفعته ، وخلقه الأنعام ليركب على ظهرها فتحمله المسافات الشاسعة ، هو ومتاعه وزاده ( وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ) .

**الفوائد :**

١- سعة رحمة الله .

٢- فضل التوبة وعلو منزلتها .

٣- الثناء والتزكية للمهاجرين والأنصار .

٤- فضل المهاجرين والأنصار في نصرتهم لدين الله .

٥-شدة ما صاحب غزوة تبوك من حر وعسر وعدو وبعد .

٦-أن القلوب بيد الله تعالى يقلبها حيث يشاء .

٧- على المسلم أن يدعو الله بثبات قلبه دوماً وأبداً وخاصة عند نزول الفتن .

٨- رحمة الله ورأفته بعباده .

**( وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ) .**

**[ التوبة : ١١٨ ] .**

---

( **وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ** ) أي : كذلك لقد تاب الله ( عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ) وهم: "كعب بن مالك" وصاحباه، وقصتهم مشهورة معروفة، في الصحاح والسنن.

- **قال الشوكاني** : أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا : أي أخروا ، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم . قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلاناً فارقته .
- **قال ابن الجوزي** : وفي معنى ( خُلّفوا ) قولان :

**أحدهما** : خُلِّفوا عن التوبة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، فيكون المعنى : خُلِّفوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك.

**والثاني** : خُلِّفوا عن غزوة تبوك ، قاله قتادة.

- **قال القرطبي** : وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم، واعتذر أقوام فقبل عذرهم، وأخر النبيّ ﷺ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن.

وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما.

واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أُولئك الذين قَبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى اللهُ فيه ؛ فبذلك قال الله عز وجل .

وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ) .

- **وقال الرازي** : هذا معطوف على الآية الأولى ، والتقدير : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، والفائدة في هذا العطف أنا بينا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي ﷺ ، كان ذلك دليلاً على تعظيمه وإجلاله ، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي ﷺ وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد ، وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك.
- إن هؤلاء الثلاثة هم المذكورون في قوله تعالى ( وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ) .
- **قال ابن عطية** : ومعنى ( خلفوا ) أخروا وترك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردت عليهم ، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين ، وقيل معنى ( خلفوا ) أي عن غزوة تبوك ، قاله قتادة وهذا ضعيف وقد رده كعب بن مالك بنفسه وقال : معنى ( خلفوا ) تركوا عن قبول العذر وليس بتخلفنا عن الغزو .

( **حَتَّى إِذَا** )حزنوا حزنا عظيماً .

( **وضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** ) أي: على سعتها ورحبها .

- **قال الشوكاني** : معناه : أنهم أخروا عن قبول التوبة إلى هذه الغاية ، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبي ﷺ نهى الناس أن يكالموهم .

وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم؛ لينزجروا عن المعاصي .

- سئل بعضهم عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الارضُ ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبيه

( **وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ** ) التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاق عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

( **وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلا إِلَيْهِ** ) أي: تيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد، ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالمخلوقين، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

- **قال ابن عطية** : وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر.

وفي هذا يقتضي أن الرجل العالم والمقتدي به أقل عذراً في السقوط من سواه ، وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة : واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً ولا طاعته إلا وجوباً ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً والسلام .

( **ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ** ) أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها .

( **لِيَتُوبُوا** ) **قال ابن القيم** : وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين في أول الآية وآخِرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم ، وهو الذى وفقهم لِفعلها، وتفضَّل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفى يديه، يعطيه مَن يشاءُ إحساناً وفضلاً، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلاً.

( **إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرحيم** ) أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ( الرَّحِيمُ ) وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

**الفوائد :**

١-وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

٢-ومنها: لطف الله بهم وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

٣-ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

٤-ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

٥-ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقا تاما، وانقطع عن المخلوقين.

٦-ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ( خُلِّفُوا ) إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بُتّ في قبول عذرهم، أو في رده ، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ( تخلفوا ) .

٧-ومنها: أن الله تعالى منّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم في الآية التي تليها .

- مختصر قصة كعب بن مالك :

عن كعب قال ( لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ ، غَيْرَ أنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ ؛ إنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ الله تَعَالَى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ميعادٍ . ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وإنْ كَانَتْ بدرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا . وكانَ مِنْ خَبَرِي حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ ، وَالله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلاَّ وَرَّى بِغَيرِها حَتَّى كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَراً بَعِيداً وَمَفَازاً، وَاستَقْبَلَ عَدَداً كَثِيراً، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمينَ أمْرَهُمْ ليتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فأَخْبرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، والمسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ (يُرِيدُ بذلِكَ الدّيوَانَ) قَالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أنَّ ذلِكَ سيخْفَى بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله ، وَغَزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلالُ ، فَأنَا إلَيْهَا أصْعَرُ ، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمسْلِمُونَ مَعَهُ وطَفِقْتُ أغْدُو لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ ، فأرْجِعُ وَلَمْ أقْضِ شَيْئاً ، وأقُولُ في نفسي : أنَا قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ إذَا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ ، فأصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادياً والمسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أقْضِ مِنْ جِهَازي شَيْئاً ، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أقْضِ شَيئاً ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ ، فَيَا لَيْتَني فَعَلْتُ ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي ، فَطَفِقْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أنِّي لا أرَى لي أُسْوَةً ، إلاّ رَجُلاً مَغْمُوصاً عَلَيْهِ في النِّفَاقِ ، أوْ رَجُلاً مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ... فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلاً مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي ، فَطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأقُولُ : بِمَ أخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدَاً ؟ وأسْتَعِيْنُ عَلى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أهْلِي ، فَلَمَّا قِيْلَ : إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أظَلَّ قَادِمَاً ، زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَنْجُوَ مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَداً ، فَأَجْمَعْتُ صدْقَهُ وأَصْبَحَ رَسُولُ الله ﷺ قَادِماً ، وَكَانَ إذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالمسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلِكَ جَاءهُ المخَلَّفُونَ يَعْتَذِرونَ إلَيْه ويَحْلِفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بِضْعاً وَثَمانينَ رَجُلاً ، فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تَعَالَى ، حَتَّى جِئْتُ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المغْضَبِ. ثُمَّ قَالَ : ( تَعَالَ ) ، فَجِئْتُ أمْشي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فقالَ لي : ( مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ ) قَالَ : قُلْتُ : يَا رسولَ الله ، إنِّي والله لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا لَرَأيتُ أنِّي سَأخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ؛ لَقَدْ

أُعْطِيتُ جَدَلاً ، ولَكِنِّي والله لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليوم حَدِيثَ كَذبٍ تَرْضَى به عنِّي لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى الله ﷻ ، والله ما كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ . قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ : ( أَمَّا هَذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ )

فَلَبِثْتُ بِذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمُلَ لَنا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلاَمِنا ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ الله تَعَالَى مِنَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوتِهِ : يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدا ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ . فآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلاَةَ الفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي ، وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءني الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبشارته، وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُما ، وَانْطَلَقْتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئونَني بالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي : لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ . حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَه النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَني وَهَنَّأَنِي ، واللهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المهَاجِرِينَ غَيرُهُ – فَكَانَ كَعْبٌ لاَ يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ... ) .

- **في قصة كعب بن مالك فوائد :**

منها : أن الإنسان لا ينبغي له أن يتأخر عن فعل الخير ، بل يتقدم ولا يتأخر ، وفي الحديث قال ﷺ ( لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله ) .

**قال ابن القيم** : إنّ الرّجْلَ إذَا حَضَرَتْ لَهُ فُرْصَةُ الْقُرْبَةِ وَالطّاعَةِ فَالْحَزْمُ كُلّ الْحَزْمِ فِي انْتِهَازِهَا وَالْمُبَادَرَةِ إلَيْهَا وَالْعَجْزِ فِي تَأْخِيرِهَا وَالتّسْوِيفِ بِهَا، وَلَا سِيّمَا إذَا لَمْ يَثِقْ بِقُدْرَتِهِ وَتَمَكّنِهِ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِهَا، فَإِنّ الْعَزَائِمَ وَالْهِمَمَ سَرِيعَةُ الِانْتِقَاضِ قَلّمَا ثَبَتَتْ وَاَللّهُ سُبْحَانَهُ يُعَاقِبُ مَنْ فَتَحَ لَهُ بَابًا مِنْ الْخَيْرِ فَلَمْ يَنْتَهِزْهُ بِأَنْ يَحُولَ دَعَاهُ حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَلْبِهِ وَإِرَادَتِهِ فَلَا يُمْكِنُهُ الِاسْتِجَابَةُ بَعْدَ ذَلِكَ . قَالَ تَعَالَى ( يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ) وَقَدْ صَرّحَ اللّهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا فِي قَوْلِهِ ( وَنُقَلّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوّلَ مَرّةٍ ) وَقَالَ تَعَالَى ( فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ ) . وَقَالَ ( وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلّ قَوْمًا بَعْدَ إذْ هَدَاهُمْ حَتّى يُبَيّنَ لَهُمْ مَا يَتّقُونَ إنّ اللّهَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ) وَهُوَ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ . ( زاد المعاد ) .

**وقال رحمه الله** : حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء :

**أحدهما** : رد الحق لمخالفته هواك .

فإنك تعاقب بتقليب القلب ورد ما يرد عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك .

قال تعالى ( وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ) فعاقبهم على رد الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك .

**والثاني** : التهاون بالأمر إذا حضر وقته .

فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك .

قال تعالى ( فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ) .

فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين فليهنه السلامة . ( بدائع الفوائد ) .

ومنها : خطورة التسويف ، وأنه يفسد على العبد أمر دينه ودنياه .

قال بعض العلماء : سوف أحد جنود إبليس .

وقال ابن الجوزي : إياك والتسويف فإنه أعظم جنود إبليس .

وقال الغزالي : إن التسويف يسبب أربعة أشياء : ترك الطاعة والكسل فيها ، وترك التوبة وتأخيرها ، والحرص على الدنيا والاشتغال بها ، وقسوة القلب ونسيان الآخرة .

وقال الحسن : إياك والتسويف ، فإنك بيومك ولست بغدك ، فإن يكن غداً لك فكن في غد كما كنت في اليوم ، وإن لم يكن لك غد لم تندم على ما فرطت في اليوم .

- الحديث دليل على استحباب تبشير المسلم بما يسره .

قال تعالى ( وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ ) .

وقال تعالى ( وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ) .

وقال معاذ للرسول ( أفلا أبشر الناس ؟ ) متفق عليه .

- الحديث دليل على استحباب سجود الشكر لقوله ( فخررتُ ساجداً ) .

**قال النووي** : فيه دليل للشافعي وموافقيه في استحباب سجود الشكر بكل نعمة ظاهرة حصلت أو نعمة ظاهرة اندفعت .

ومما يدل على الاستحباب :

أ-حديث أَبِي بَكْرَةَ ﷺ ( أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا جَاءَهُ أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ سَاجِداً لِلَّهِ ) رواه أبو داود .

ب- وَعَنْ عَبْدِ اَلرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﷺ قَالَ ( سَجَدَ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَطَالَ اَلسُّجُودَ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : إِنَّ جِبْرِيلَ آتَانِي ، فَبَشَّرَنِي ، فَسَجَدْت لِلَّهِ شُكْرًا ) رَوَاهُ أَحْمَد .

ج- وَعَنْ اَلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ -رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا- ( أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ عَلِيًّا إِلَى اَلْيَمَنِ - فَذَكَرَ اَلْحَدِيثَ - قَالَ : فَكَتَبَ عَلِيٌّ ﷺ بِإِسْلَامِهِمْ ، فَلَمَّا قَرَأَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ اَلْكِتَابَ خَرَّ سَاجِدًا ) رَوَاهُ اَلْبَيْهَقِيُّ .

وقد روي عن أبي بكر أنه سجد لما جاءه خبر فتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب . رواه عبد الرزاق

وروي أن أمير المؤمنين عمر ، سجد لما جاءه خبر بعض الفتوحات في عهده .

وسجد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين وجد ذا الثدية مع قتلى الخوارج بعد وقعت النهروان بينه وبينهم ، لأنه عرف أنه على الحق ، لأن النبي ﷺ أخبر عن الخوارج أنهم شرّ الناس ، وأن سيماهم : أن منهم رجلاً ليس له ذراع ، وعلى رأس عضده مثل ملحة الثدي .

**( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ) .**

[ التوبة : ١١٩ ] .

---

**( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ )** بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

**( وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ )** بألسنتهم وقلوبهم وأحوالهم .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى ( وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ) هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين.

قال مُطرِّف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف.

- **قال أبو حيان** : هذا خطاب للمؤمنين ، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق.
- الصدق يكون :

**في الأقوال** : ومعناه : استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها .

**وفي الأعمال** : ومعناه : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد .

**وفي الأحوال** : ومعناه : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص .

عن ابن مسعود ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : ( إنَّ الصِّدقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ ، وإنَّ البر يَهدِي إِلَى الجَنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً .

- **فضائل الصدق ، وللصدق فضائل** :

**أولاً** : أنه سبب للطمأنينة .

كما في الحديث الآتي ( فإن الصدق طمأنينة ) .

**ثانياً** : هو المميز بين المؤمن والمنافق .

قال ﷺ ( آية المنافق ثلاث : . وإذا حدث كذب ... ) .

**ثالثاً** : لا ينفع يوم القيامة إلا الصدق :

قال تعالى ( قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ) .

**رابعاً** : الصدق أصل كل بر .

قال ﷺ ( إن الصدق يهدي إلى البر ) متفق عليه .

**خامساً** : أن مجاهدة النفس على تحري الصدق توصلها إلى مرتبة الصديقية .

قال ﷺ : ( ... ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ) .

**سادساً** : الصدق سبب للبركة .

كما قال ﷺ ( البيعان بالخيار ... فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ) .

قال عمر بن الخطاب : عليك بالصدق وإن قتلك .

وقال بشر بن الحارث : مَنْ عامل الله بالصدق استوحش من الناس .

وقال جعفر بن محمد : الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختر عليك غيرك، فقال تعالى (هو اجتباكم) .

وقال بعض العلماء : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض : الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله في الأعمال ، وطيب المطعم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والصدق أساس الحسنات وجماعها ، والكذب أساس السيئات ونظامها .

قال ابن القيم : الصادق مطلوبه رضى ربه ، وتنفيذ أوامره ،وتتبع محابه ، فهو متقلب فيها ، يسير معها أينما توجهت ركائبها ، ويستقل معها أينما استقلت مضاربها ، فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع المنافع.

قال ابن تيمية : الصديقية : كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهراً وباطناً .

قال ابن القيم : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

**قال ابن القيم رحمه الله** : إن الصادق لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضا محبوبه ، ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه ، لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها.

**الفوائد :**

١- الأمر بتقوى الله .

٢- الحث على الصدق بالقول والفعل والنية .

٣- الحث والحرص على الأسباب التي تؤدي إلى الصدق .

**( مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢١) ) .**

[ التوبة : ١٢٠-١٢١ ] .

---

**( مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللَّهِ )** عتاب لمن تخلف عن (غزوة تبوك ) اي ما صح ولا استقام لأهل المدينة ومن حولهم من سكان البوادي ان يتخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ .

قال الشوكاني : ... زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله ﷺ ، وتحريم التخلف عنه : أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب التخلف .

- **قال الشوكاني** : وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا ، فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب ، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله ﷺ .

**( وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ )** أي : لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه ، بأن يكرهوا لها المكاره ، ولا يكرهون ذلك له عليه السلام ، بل عليهم ان يفدوه بالمهج والارواح ، وان يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب ، قال الزمخشري : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وان يلقوا من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها اعز نفس على الله واكرمها عليه ، لا ان يضنوا بأنفسهم على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ ، وتهييج لمتابعته عليه السلام .

- **قال الشوكاني** : أي : وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس رسول الله ، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا : أي ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق . ويبذلوا أنفسهم دون نفسه؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم ، والتقريع الشديد ، والتهييج لهم ، والإزراء عليهم
- **قال ابن عاشور** : وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب.

وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي ﷺ للغزو.

وقال قتادة وجماعة : هذا الحكم خاص بخروج النبي ﷺ دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو مُحكم غير منسوخ.

وبذلك جزم ابن بَطال من المالكية.

قال زيد بن أسلم وجابر بن زيد : كان هذا حكماً عاماً في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة ) فصار وجوب الجهاد على الكفاية.

وقال ابن عطية : هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين لأنه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخُروج.
واختاره فخر الدين.

( **ذَلِكَ** ) الإشارة بقوله ( ذلك ) إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب ، وأصناف الشدائد .

( **بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ** ) أي ذلك النهي عن التخلف ، بسبب أنهم لا يصيبهم عطش .

( **وَلاَ نَصَبٌ** ) أي : ولا تعب .

( **وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ) أي : ولا مجاعة .

( **وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ** ) أي : لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم ، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار . والموطئ : اسم مكان .

( وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ) أي : يصيبون من عدوّهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة .

( **إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ** ) أي : إلا كان ذلك قربة لهم عند الله .

**إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ) أي : لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

**وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً** ) معطوف على ما قبله : أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب ، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً .

- **قال ابن عطية** : قدم الصغيرة للاهتمام أي إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى ، و" الوادي " ما بين جبلين كان فيه ماء أو لم يكن ، وجمعه أودية .
- **وقال الآلوسي** : وذكر الكبيرة بعد الصغيرة وان علم من الثواب على الأولى الثواب على الثانية لأن المقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى ولا ينفقون شيئاً ما فلا يتوهم أن الظاهر العكس .

( **وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا** ) في ذهابهم إلى عدوهم .

( **إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ** ) يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم .

( **لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ) قال العلماء : فيه وجهان :

الأول : أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح.

والثاني : أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب .

**الفوائد :**

١-ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

٢- وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد .

٣- وجوب الجهاد إذا استنفر الإمام ، وتحريم التخلف .

٤-أن التخلف عن الجهاد من صفات أهل النفاق .

٥-الترغيب الشديد في الجهاد في سبيل الله .

٦-أن كل ما يصيب المجاهد في جهاد له أجر عليه .

٧-أن إغاظة الكفار محبوبة ومرغوبة للشارع .